(ت ٣٣٧) فجعلها اصلا وقاعدة للغزل . قال (فيجب ان يكون النسيب الذي يتم فيه الغرض هو ما اكثرت فيه الدلالة على التهالك في الصبابة وتظاهرت(٢٨) فيه الشواهد على افراط الوجد واللوعة . وما كان فيه من التصابي والرقة اكثر مما يكون فيه من الخشن والجلادة وعلى الخشوع والذلة اكثر مما يكون فيه من الاباء والعز(٢٩) .

الى جوار هذا كان النقد يتناول المعاني الجزئية ويتخذ من الموازنة منهجا لتقويم الشعراء . مثل تلك الموازنة التي اجرتها السيدة سكينة بين شعر جرير ونصيب وكثير وجميل والاحرص وقد رواها المرزباني(٣٠) . او تلك الموازنة التي اقامها كثير بين شعر عمر وشعر الاحوص(٣١) . او الموازنة بين شعر كثير وشعر جميل . وكون الثاني (اعشق) من الاول(٣٢) .

وقد امتدح شعر جميل لانه « مطبوع »(٣٣) وعلى هذا فهو (اشعر الناس واشعر العرب(٣٤) .

كما عاب عمر شعر الاحرص لما فيه من المبالغة والاغراق(٣٥) .

لقد كان نقد المعاني ـ ومن معاييرها الصدق والابتعاد عن المبالغة والاقتراب من الصورة النموذجية المثالية في وصف النساء خاصة . وحسن مخاطبتهن ـ ملمحاً بارزاً في النقد الحجاري مثلما كان الحال في النقد الشامي . وليس هناك من فرق سوى ان النقد الشامي وجه عنايته لنقد معاني المدح لا الغزل . وهذا شيء طبيعي في بيئة ازدهر فيها شعر المدح ايما ازدهار .

المدح :

وكان من ابرز نقدة الشام عبد الملك بن مروان وبشر بن مروان ويزيد بن عبد الملك ونقدهم انصب بالطبع على معاني قصيدة المدح واصول مخاطبة الخلفاء والامراء .

ويبدو ان الشعراء الذين كانوا يفدون الى الشام مثل جرير والفرزدق وكثير وذي الرمة وغيرهم . لم يكونوا يحسنون مخاطبة هذه الفئة من الناس . فجرير مثلا يخاطب يزيد بن عبد الملك بقوله :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة
لو شئت ساقكم الى قطينا

فيعلق الممدوح منكرا ، اما ترون جهل جرير ؟ يقول لي ابن عمي . ويقول .. لو شئت ساقكم . اما لو قال لو شاء ساقكم لاصاب . ولعلي كنت افعل(٢٤) .

ولجرير موقف اخر شبيه بهذا امام بشر بن مروان الذي خاطبه قائلا :

قد كان حقك ان تقول لبارق
يآل بارق فيم سب جرير

فقال بشر ، اما وجد ابن المراغة رسولا غيري ؟ ويعلق الصولي على هذا القول ، (وليس كذا يخاطب الامراء)(٢٥)

مثل هذه الملاحظات النقدية كانت تحاول ان تضع اصلا من اصول مخاطبة علية القوم وهي نظرة تجعل الناس طبقات ومنازل . ولكل اسلوب للمخاطبة ومعان تحسن فيها ولا تحسن في غيرها . وقد فصل القول في هذا ايضا قدامة بن جعفر في الفصل الذي كتبه بعنوان (نعت المديح) وجعله اساسا وقاعدة لقصيدة المدح . فقد حدد الناس اصنافا وجعل لكل صنف معاني مخصوصة(٢٦) .

وليس من شك في ان النظرة (الطبقية) للمدح جديدة على قصيدة المدح العربية الا ان المعاني التفصيلية ليست كذلك ... فالشاعر العربي لم يكن يعرف

---

(٢٤) السابق ١٩٠ ـ ١٩١
(٢٥) الموشح ١٨٩ ـ ١٩٠

الممدوح غير انه انسان تميزه من غيره صفات تجعله اهلا للمدح . او انه يجد في سلوكه وخلقه وقوله مناقب العرب في الشجاعة والمروءة والحزم ... الخ . ولم يكن يرى فيه انسانا يعلو على قومه لدرجة انه يقتضي اسلوباً خاصاً في مخاطبته . ومن ناحية اخرى لم يخرج الشاعر يومئذ كثيرا عن المألوف في رسم الصورة المقبولة للممدوح اجتماعيا . وعلى هذا مدح كثير عبد الملك بن مروان بقوله ،

على ابن ابي العاصي دلاص حصينة
اجاد المسدي سردها واذا لها
يوؤد ضعيف القوم حمل قتيرها
ويستظلع القرم الا شم احتمالها

فقال عبد الملك موازنا بين هذين البيتين ومثلهما للاعشى في مدح قيس بن معد يكرب ومفضلا الثاني على الاول ،

واذا بجيء كتيبة ملمومة
خرساء يخشى الذائدون نهالها
كنت المقدم غير لابس جنة
بالسيف تضرب معلما ابطالها

ورد عليه كثير بالقول (يا امير المؤمنين وصف الاعشى صاحبه بالطيش والخرق والتغرير ووصفتك بالحزم والعزم فأرضاه)(٣٧) .

وبصرف النظر عن موقفنا من الصورتين اللتين رسمهما كل من الشاعرين الجاهلي والاسلامي للممدوحيهما فأن حجة الشاعر لاقناع الخليفة بجودة معناه كانت تمثل موقفا اجتماعيا مقبولا فالحزم والعزم صفات لابد ان تكون من ضمن ما ينبغي ان يوصف به الممدوح وخاصة رجلا في مركز عبد الملك .

وقد بقي المعيار الاخلاقي الديني الذي اسنه الاسلام لتقويم الشعر اساسا في النقد ولذلك وجدنا ان عبد الملك لم يعجبه مدح ابن قيس الرقيات له في هذا البيت .

يعتدل التاج فوق مفرقه

على جبين كأنه الذهب

اذ يعلق بالقول ،

تقول لمصعب بن الزبير

انما مصعب شهاب من الله

تجلت عن وجهه الظلماء

وأما لي فتقول على جبين كأنه الذهب(٢٨) وما ذلك الا لان ابن قيس الرقيات مدح مصعباً بالفضائل المعنوية بينما مدح عبد الملك بالفضائل المادية .

وقد لاحظ القدماء ذلك فقال قدامة بن جعفر مسوغاً ومعللا موقف الممدوح (فوجه عتب عبد الملك انما هو من اجل ان هذا المادح عدل عن الفضائل النفسية التي هي العقل والعفة والعدل والشجاعة الى مايليق باوصاف الجسم من البهاء والزينة . وقد كنا قدمنا ان ذلك غلط وعيب)(٢٩).

ومما يؤيد هذا الموقف ويعضده ماروى عنه انه قال مرة مخاطباً الشعراء (يامعشر الشعراء تشبهوننا مرة بالاسد الابخر ومرة بالجمل الاوعر ومرة بالبحر الاجاج .. الا قلتم فينا كما قال ايمن بن خريم في بني هاشم ،

نهاركم مكابدة وصوم

وليلكم صلاة واقتراء(٣٠)

وقد طغت في العراق شخصيات ثلاثة من الشعراء على الشعر . فدار النقد حولهم على حين ان النقد في الحجاز والشام كان يدور حول اغراض شعرية وليس عن شعراء . اما هؤلاء الشعراء فهم الفرزدق وجرير والاخطل . وقد حفلت كتب الادب والنقد والشعر باخبارهم . وما كان بينهم من منافشة ومناقضات وما تولد عن ذلك من فن جديد هو (النقائض) .

---

(٢٨) السابق ٣٦٤

(٢٩) نقد الشعر ١٥٥

وكانت الموازنة بين هؤلاء في المعاني والاغراض ابرز ما كان يدور حول النقد آنذاك على الرغم من ان المفاضلة بينهم ـ كما يرى باحث معاصر ـ لم تكن تعني بتحليل النصوص الشعرية ولا توازن بينهم فنياً . او تكشف عن خصائصهم الشعرية او عيبهم في النظم . وهي لاتفيد النقد الادبي في شيء ففيها خلط كثير بين شعر الشاعر ومنزلته الاجتماعية او منزلة قومة الاجتماعية وهذا يفرض خلطاً في معايير ليست من النقد في شيء(٣١) .

وليست المسألة على هذا النحو تماماً . صحيح ان التعصب القبلي لعب دوراً في المفاضلة بينهم . لكن المفاضلة لم تقم على هذا الاساس وحده. يروى ابن سلام عن بشار العقيلي انه قال ، (لم يكن الاخطل مثلهما ـ اي جرير والفرزدق ـ ولكن ربيعة تعصبت له وافرطت فيه(٣٢). وفي رواية اخرى (والله كان الاخطل مثل جرير والفرزدق ولكنهما كانا من مضر فكرهت ربيعة الا يكون منها مثلهما . فتعصبت له ورفعت منه(٣٣) .

ومع ذلك فقد عد هؤلاء الثلاثة الناس في عصرهم . شغلوهم شعراً وعصبية ومناقضات .. لدرجة ان الناس احسوا ان الثلاثة طبقة ، لايجاريهم ولا يقاربهم احد من معاصريهم(٣٤) وكانت تلك الفكرة نواة نظرية الطبقات التي كتب فيها ابن سلام كتابه المشهور (طبقات فحول الشعراء) .

وقد مضى نقاد ذلك العصر الى ابعد من الموازنة بين هؤلاء الثلاثة فقد ادت فكرة كون هؤلاء طبقة اولى متميزة الى ان يجدوا من يماثلهم من الجاهليين . فقرنوا بينهم وبين الجاهليين الاعشى والنابغة وزهير(٣٥)

وبذلك كان للنقد يضع موضع التطبيق مصطلحاً نقدياً هو (الطبقة) ويشرع منهجاً نقدياً مهماً هو الموازنة .. ومثلما وجدنا عند ابن سلام تطبيقاً واسعاً لمفهوم الطبقات . وجدنا عند الامدى تطبيقاً لمنهج الموازنة الذي طبق على شاعرين عباسيين كبيرين هما ابو تمام والبحتري .